عيّنة من الكتاب

(للتصفح والاطّلاع)

بسم الله الرحمن الرحيم

شيرلوك هولمز

مغامرة البُقْعة الثّانيَة

وقصّتان أُخرَيان

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لثلاث من قصص
شيرلوك هولمز المنشورة أول مرة عام ١٩٠٤/١٩٠٨

The Adventure of the Second Stain
The Adventure of Wisteria Lodge
The Adventure of the Bruce-Partington Plans

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا
الكتاب بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو
إلكترونية أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الثانية
٢٠٢٠

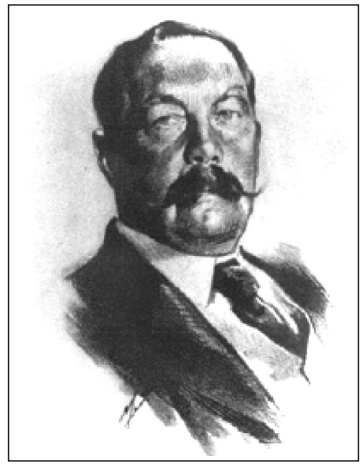

آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في سكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطَرَّته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه

إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلّات الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص، وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري. وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة في اللون القِرْمِزي» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

واحدة من تلك الحوادث كانت عن رجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث بدَّل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلَّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى

سكتلندا تغادر محطة كِنْغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.

عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور آرثر كونان دويل في حرب البُويِر (التي دارت في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولَقَبها «سيرْ» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

توفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل".

وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من

هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨، وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (شارع بيكر، ٢٢١ب) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته

وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِيةُ القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو، المحقق الشهير الذي ابتكرته أغاثا كريستي). وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وحصل على شهادته الجامعية في الطب سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش وشارك في الحملة الأفغانية، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية عام ١٨٩٣ «قَتل» دويل بطلَه شيرلوك هولمز، لكنه واجهَ احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة في اللون القِرْمِزي»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، هي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

في السنة التالية بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو) ١٨٩١، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشُغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة، نُشر

آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «مذكرات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة، وعنوانها «المشكلة الأخيرة»، في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يَحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على إعادة إحياء شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الفارغ» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد، فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الفارغ) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد التبت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كولْيِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة

«عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣. ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥) التي حازت على إعجاب النقّاد في كل الأوقات. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومَنْسيّة ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب غير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من مؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفِسور تشالنجر

(أشهرها رواية «العالَم المفقود») ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *

رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ قصص هولمز منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في

عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» كل من وُلْتَر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وتشارلز هَليدي وأَلِكْ بول وجوزف سمبسون وهنري بروك. أما السلسلة الأخيرة (قضايا شيرلوك هولمز) فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم هَوارد إلْكوك وفرانك وايْلز وألفرِدْ جِلبرْت.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند». أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردرِك دورْ ستيل، ومنهم جوزف فريدرتش ورِتشارد غوتشمت ووليَم هايْد.

* * *

عودة شيرلوك هولمز
(١٣)

مغامرة البُقْعة الثّانيَة

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «سْتراند» الشهرية
في عدد كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤

حدث ذلك في زمن لن أحدده. ذات خريف وفي صباح أحد أيام الخميس زارنا في مسكننا المتواضع في شارع بيكر اثنان من مشاهير أوروبا. كان الأول مهيمناً صارماً شامخ الأنف حاد النظرات، وهو اللورد بلينجر الشهير الذي كان رئيساً لوزراء بريطانيا مرتين، أما الآخر فكان متميزاً أنيقاً في منتصف العمر ويميل إلى السمرة، وكان يتمتع بجمال العقل والجسد، ولم يكن سوى فخامة سكرتير الشؤون الأوروبية تريلوني هوب، الذي كان من أكثر رجال الدولة أهمية في البلاد.

وقد جلسا جنباً إلى جنب على أريكتنا المليئة بالأوراق، وكان من الواضح على وجهيهما الإرهاق والقلق مما دلّ على مدى الأهمية الملحّة للقضية التي قدما من أجلها. شدّ رئيس الوزراء على قبضة مظلته العاجية بيده النحيلة ذات العروق النافرة وأخذ يقلّب نظره بيني وبين هولمز والكآبة تكسو وجهه النحيل الزاهد، بينما أخذ السكرتير الأوروبي يبرم شاربه بتوتر ويقوم بحركات عصبية مستخدماً غطاء سلسلة ساعته.

- عندما اكتشفت ضياع الوثيقة يا سيد هولمز (وكان ذلك في الساعة الثامنة من صباح هذا اليوم) سارعت على الفور إلى إبلاغ رئيس الوزراء، ثم أسرعنا إليك بناء على اقتراحه.

- هل أبلغت الشرطة؟

قال رئيس الوزراء بأسلوبه الحاسم السريع الذي كان مشهوراً به: لا يا سيدي، لم نفعل ذلك، ولن نفعل، فإبلاغ الشرطة معناه أن نبلغ الجمهور، وهذا بالذات هو ما نريد تجنّبه.

- ولماذا يا سيدي؟

- لأن للوثيقة المفقودة أهمية هائلة، وقد تؤدي إلى تعقيدات أوروبية ذات خطورة كبيرة. ولن أبالغ لو قلت إن الحرب والسلم يتوقفان على العثور عليها، وما لم نسترجعها بسرّية تامة فلا حاجة لاستعادتها على الإطلاق، لأن الهدف

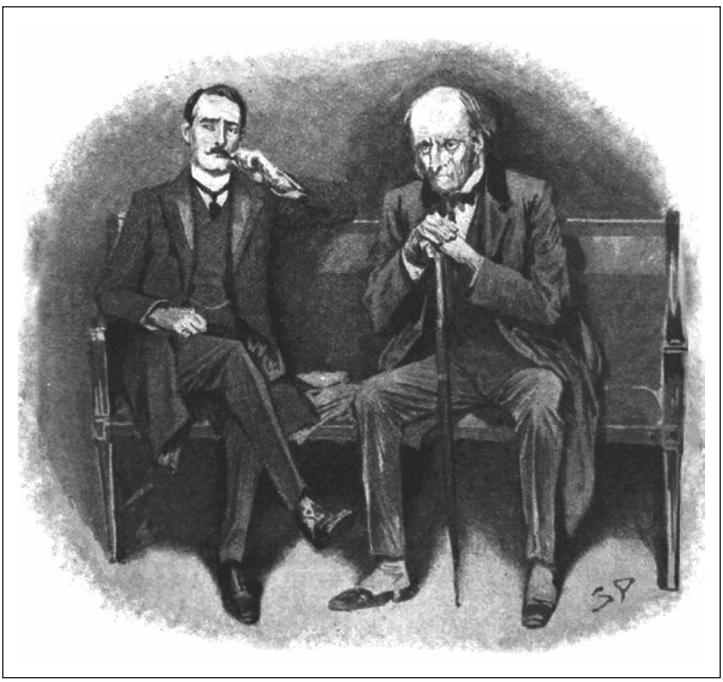

رسم سدني باجيت (١٩٠٤) Sidney Paget (1904)

من سرقتها هو أن يعرفها الجميع.

- فهمت. والآن يا سيد تريلوني هوب، سأكون ممتناً لو أخبرتني بملابسات اختفاء تلك الوثيقة.

- لا يحتاج ذلك إلا إلى كلمات قليلة جداً يا سيد هولمز. لقد استلمت ذلك الخطاب من حاكم أجنبي منذ ستة أيام، ولأهميته لم أتركه في خزنة مكتبي، بل أخذته معي كل ليلة إلى منزلي في وايتهول تِريس واحتفظت به في غرفة نومي في صندوق أوراق مغلق. وقد كان هناك حتى ليلة أمس، أنا متأكد من ذلك تماماً لأنني فتحت الصندوق عندما ارتديت ملابس العشاء ورأيته فيه، ولكنه اختفى في الصباح. وقد بقي صندوق الأوراق بجوار سريري طَوال الليل، وأنا أؤكد لك أن نومي خفيف وكذلك نوم زوجتي، ونحن على استعداد لأن نُقسم بأن أحداً لم يدخل الغرفة ليلة أمس، ومع ذلك فقد اختفى الخطاب.

- في أي وقت تناولت عشاءك؟

- في السابعة والنصف.

- وكم مضى من الوقت حتى ذهبت إلى النوم؟

- ذهبت زوجتي إلى المسرح وبقيت أنا في انتظارها، وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف حين ذهبنا إلى غرفتنا.

- وهكذا فإن صندوق الأوراق بقي بلا حراسة لمدة أربع ساعات؟

- لا يُسمح لأحد أبداً بدخول تلك الغرفة عدا مدبرة المنزل في الصباح، وخادمي الشخصي وخادمة زوجتي في سائر ساعات النهار، وكلاهما مؤتمَن ويعمل عندنا منذ وقت طويل، ثم أن أياً منهما ما كان ليعرف بوجود أي شيء في صندوق رسائلي أكثر قيمة من الأوراق العادية.

- مَن عرف بذلك الخطاب؟

- لا أحد في المنزل.

- لا بد أن زوجتك عرفت؟

- لا يا سيدي؛ لم أقل شيئاً لزوجتي إلا بعد أن فُقدت الوثيقة هذا الصباح.

أومأ رئيس الوزراء باستحسان وقال: إنني أعرف منذ مدة طويلة مدى إحساسك العالي بالواجب العام يا سيدي، وأنا مقتنع بأنك ستتخذ أقصى القيود العائلية -في حالة وجود سرّ بهذه الأهمية- للحفاظ على خصوصية هذا السر.

انحنى السكرتير الأوروبي شاكراً وقال: لقد كان رأيك فيّ عادلاً يا سيدي، فحتى اليوم لم أنطق بحرف عن هذا الأمر لزوجتي.

سأل هولمز: هل يمكن أن تكون هي قد خمّنت وحدها؟

- لا يا سيد هولمز، فهي لم تكن تستطيع التخمين، لا هي ولا أي أحد غيرها.

- هل سبق أن فقدت أي وثيقة من قبل؟

- لا يا سيدي.

- مَن يعرف بهذا الخطاب في إنكلترا؟

- لقد أُبلغ كل أعضاء مجلس الوزراء بأمره بالأمس، ولكنّ عهدَ السرّية الذي يلازم كل اجتماع للوزراء عُزِّزَ بإشعار مؤكِّد ألقاه رئيس الوزراء. يا إلهي، من الصعب التفكير في أنني فقدته في غضون ساعات قليلة بعد انتهاء الاجتماع!

تغيّر شكل وجهه الجميل في فورة من اليأس ومرر أصابعه في شعره، وللحظة لمحنا صورة لشخص طبيعي متحمس مندفع شديد الحساسية، وفي اللحظة التالية عاد القناع الأرستقراطي والصوت اللطيف، قال: إلى جانب أعضاء مجلس الوزراء يعرف ثلاثة من الموظفين الإداريين بأمر الخطاب، وأنا أؤكد لك -يا سيد هولمز- بأنه ليس في إنكلترا أي شخص آخر يعرف عنه شيئاً.

- وماذا عن خارج البلاد؟

- أعتقد أن أحداً خارج البلاد لم يرَ هذا الخطاب ما عدا كاتبه نفسه، فأنا مقتنع تماماً بأن وزراءه... أعني أن القنوات الرسمية الاعتيادية لم تُستخدَم في إعداد هذا الخطاب.

فكر هولمز لوقت قصير ثم قال: الآن يا سيدي يجب أن أسألك: ما هي هذه الوثيقة؟ ولماذا سيترتب على اختفائها مثل هذه التبعات العظيمة؟

تبادل رجلا الدولة النظرات وعقد رئيس الوزراء حاجبيه

المشعثين متجهماً ثم قال: إن الظرف -يا سيد هولمز- طويل نحيل ولونه أزرق باهت وعليه ختم بالشمع الأحمر على شكل أسد، والعنوان مكتوب بخط عريض واضح وموجّه إلى...

قاطعه هولمز قائلاً: مع أن هذه التفصيلات أساسية حقاً ومثيرة للاهتمام إلا أنني أخشى أن تساؤلاتي يجب أن تغوص أكثر في عمق الأشياء. ماذا كان فحوى هذا الخطاب؟

- إنه سرّ قومي له أهمية قصوى، وأخشى أنني لا أستطيع إخبارك. كما أنني لا أرى ذلك ضرورياً، فلو استطعت العثور على مثل هذا الظرف الذي وصفتُه بالقدرات التي تدّعي امتلاكها فسوف تكون قد خدمت بلدك جيداً وتستحق أيّ مكافأة في مقدورنا أن نمنحك إياها.

وقف شيرلوك هولمز وقال مبتسماً: إنكما اثنان من أكثر الرجال انشغالاً في البلاد، وأنا أيضاً مشغول ولو بشكل مصغّر ولديّ الكثير من المهمات. أنا آسف حقاً لعدم قدرتي على مساعدتكما في هذا الأمر، ولذلك فالاستمرار في هذه المقابلة سيكون مَضيعة للوقت.

هبَّ رئيس الوزراء واقفاً على قدميه وعيناه العميقتان تبرقان بالنظرة القوية التي يُخضع بها مجلس الوزراء وقال: إنني غير معتاد يا سيد...

ولكنه تحكّم في غضبه بصعوبة وعاد إلى الجلوس في كرسيه ثانية، ثم جلسنا جميعاً في صمت لمدة دقيقة، وبعدها

تنحنح رجل الدولة وقال: نحن مضطرون لقبول شروطك يا سيد هولمز. لا شك أنك على حق، فمن غير المعقول أن نتوقع منك تنفيذ المهمة دون أن نمنحك ثقتنا الكاملة.

وقال السكرتير الأوروبي: إنني أتفق معك يا سيدي.

- سأخبرك إذن معتمداً على كلمة شرف منك ومن زميلك، وسأناشد وطنيتك أيضاً يا دكتور واطسون، فلا أتخيل مصيبة أعظم مما يمكن أن يحدث لهذا البلد إذا شاعت هذه القضية.

رسم سدني باجيت (١٩٠٤) Sidney Paget (1904)

- يمكنك أن تثق بنا وأنت مطمئن.

- إذن فإليكما التفصيل: الخطاب من حاكم أجنبي منزعج من بعض توسّعات بريطانيا الاستعمارية الحديثة، وقد كتبه على عجل وعلى مسؤوليته الخاصة تماماً، وأظهرت التحريات أن وزراءه لا يعرفون شيئاً عن الموضوع. المزعج أن الخطاب صيغَ بطريقة سيئة مستفزّة، وسوف يؤدي نشره إلى شعور شديد الخطورة في بلادنا، حتى إنني لا أتردد في القول بأننا قد نتورط في الحرب خلال أسبوع من نشر هذا الخطاب.

كتب هولمز اسماً على قطعة من الورق وقدمها لرئيس الوزراء الذي قال: تماماً، إنه هو، هو الذي أرسل ذلك الخطاب... الخطاب الذي يُحتمَل أن يؤدي إلى إنفاق آلاف الملايين وخسارة مئة ألف رجل، ثم ها هو قد فُقِد بهذه الطريقة الغريبة!

- هل أبلغت المرسِل؟

- نعم يا سيدي، لقد أرسلت إليه برقية مشفّرة.

- ربما رغب في نشر هذا الخطاب؟

- لا يا سيدي، فلدينا سبب قوي يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه أدرك تسرّعه ورعونة تصرفه، كما سيكون في نشر هذا الخطاب ضربة قوية له ولبلاده.

- إذا كان الأمر كذلك فمَن إذن له مصلحة في نشر الخطاب؟ لماذا يرغب أي شخص في سرقته ونشره؟

- أنت تنتقل بنا الآن إلى ساحة السياسات الدولية يا سيد هولمز. إذا أخذت في اعتبارك الموقف الأوروبي فلن تجد صعوبة في معرفة الدافع، فأوروبا كلها صارت أقرب إلى معسكرين مسلحين، أما بريطانيا العظمى فإنها تقف خارج تلك القوى في موقف محايد، ولو اضطربت الأمور فقد نجد أنفسنا متورطين في الحرب. هل تفهمني؟

- بوضوح شديد، فإن من مصلحة أعداء هذا الحاكم إذن الحصول على الخطاب ونشره، وهذا سيؤدي إلى حدوث شرخ في العلاقات بين بلده وبلدنا؟

- نعم يا سيدي.

- ولمَن يمكن أن يُرسَل هذا الخطاب إذا سقط في أيدي الأعداء؟

- لسفارة إحدى الدول الأوروبية العظمى، ومن المحتمَل أن يكون منطلقاً في طريقه إلى هناك في هذه اللحظة بأقصى سرعة ممكنة.

أسقط السيد تريلوني هوب رأسه على صدره وأطلق زفرة عالية، فوضع رئيس الوزراء يده على كتفه مواسياً وهو يقول: إن ما حدث إنما هو سوء حظ يا صديقي العزيز، ولا يمكن لأحد أن يلومك، فأنت لم تهمل في اتخاذ أي احتياطات. والآن يا سيد هولمز، لقد صارت كل الحقائق بين يديك، فما الذي تنصح به؟

هز هولمز رأسه بأسى وقال: هل تعتقد يا سيدي بأن

الحرب ستقوم إذا لم نَستعِدْ تلك الوثيقة؟

- أظن أن الأمر محتمَل جداً.

- إذن فاستعِدّ للحرب يا سيدي.

- هذا كلام صعب يا سيد هولمز!

- إذا درست الحقائق ستجد أن من غير المعقول أن يكون الخطاب قد سُرق بعد الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، حيث إنني فهمت أن السيد هوب وزوجته كانا في الغرفة منذ تلك الساعة حتى اكتشاف السرقة، وإذن فلا بدّ أن السرقة وقعت بين السابعة والنصف والحادية عشرة والنصف، ومن الأرجح أن تكون قد تمت في وقت قريب من الساعة الأبكر، أي السابعة والنصف، حيث يغلب على الظن أن الذي أخذ الخطاب كان يعرف بوجوده، ولذلك فإنه سيحاول الحصول عليه في أبكر وقت ممكن. حسناً، إذا سُرقت وثيقة بمثل هذه الأهمية في تلك الساعة فأين يمكن أن تكون الآن؟ لا يوجد سبب يدعو أي شخص إلى الاحتفاظ بها، ولعلها أُرسلت إلى مَن يحتاجها بسرعة. فما هي فرصتنا الآن في الحصول عليها أو حتى في تتبعها؟ لقد أصبحت بعيدة عن متناول أيدينا.

نهض رئيس الوزراء عن الأريكة وقال بأسى: ما تقوله منطقي تماماً يا سيد هولمز، فأنا أشعر بأن الأمر خرج عن سيطرتنا في الحقيقة.

- ولكن لو افترضنا أن الوثيقة سُرِقت بواسطة الخادمة أو

الخادم الشخصي...

- إنهما مسنّان وموثوق بهما.

- فهمت منك أن غرفتك في الطابق الثاني وأنها ليس لها مدخل خارجي، كما أن أحداً لا يستطيع الوصول إليها دون أن يُلاحَظ، فلا بد -إذن- أن سارق الخطاب هو واحد من أهل المنزل. فلمَن سيأخذه؟ لواحد من العملاء والجواسيس الذين يقيمون في لندن، وثمة ثلاثة منهم يمكن أن يقال إنهم زعماء في مهنتهم. سوف أبدأ تحرياتي لأعرف إن كان كل منهم في موقعه، فإذا كان أحدهم غير موجود، ولا سيما إذا كان قد اختفى منذ ليلة أمس، فستكون هذه إشارة إلى حيث يمكن أن يكون الخطاب.

سأل السكرتير الأوروبي قائلاً: ولماذا يختفي؟ الأرجح أنه أخذ الخطاب لإحدى السفارات في لندن.

- لا أظن، فهؤلاء العملاء يعملون باستقلالية وعلاقتهم بالسفارات متوترة.

أومأ رئيس الوزراء موافقاً وقال: أظن أنك محقّ يا سيد هولمز، فهو سوف يأخذ مثل هذه الغنيمة القيّمة إلى المركز الرئيسي بنفسه، ولذلك أعتقد أن طريقة عملك ممتازة. لو وقعت أي تطورات جديدة في أثناء النهار فسوف نتصل بك يا سيد هولمز، وأنت ستطلعنا على نتائج تحقيقك بلا شك.

* * *

ألقى رجلا الدولة التحية ثم خرجا من الغرفة باكتئاب، وعندما غادرا جلس هولمز صامتاً لبعض الوقت وهو غارق في تفكير عميق، وفتحت أنا جريدة الصباح واستغرقت في قراءة تفصيلات جريمة مثيرة حدثت في لندن في الليلة السابقة.

بعد فترة أطلق هولمز صرخة وهبّ واقفاً على قدميه وقال: نعم، لا يوجد أسلوب أفضل للتعامل مع الأمر، فالموقف يائس وإن كان غيرَ مستحيل، وحتى الآن إذا استطعنا معرفة السارق فمن الممكن أنه ما زال يحتفظ بالخطاب، فالأمر عند هؤلاء الناس يتعلق بالمال قبل أي شيء آخر، وما دامت الخزانة البريطانية تدعمني فسوف أنجح بشرائه لو كان معروضاً للبيع، حتى ولو ترتبت على ذلك زيادة في ضريبة الدخل! ليس مستبعَداً أن يحتفظ السارق بخطاب كهذا ليرى العروض التي يستطيع الحصول عليها من هذا الجانب قبل أن يحاول عند الجانب الآخر، وهناك ثلاثة أشخاص فقط يمكنهم القيام بمثل هذا العمل الجريء: أوبرشتاين ولاروثيير وإدواردو لوكاس. سأسعى لرؤية كل منهم على الفور.

ألقيت نظرة خاطفة على جريدة الصباح وقلت: هل هو إدواردو لوكاس المقيم في شارع غودولفين؟

- نعم.

- لن تستطيع رؤيته.

- ولِمَ لا؟

- لقد قُتل في منزله ليلة أمس.

انتابني شعور غامر بالسعادة حين أدركت أنني أصبت صديقي بالذهول التام، فهو غالباً ما كان يثير دهشتي خلال المغامرات التي شاركته فيها، أما في تلك اللحظة فقد حدّق إليّ في ذهول، ثم انتزع الصحيفة من يدي وراح يقرأ الخبر، وقد جاء فيه:

جريمة في وسْتمِنسْتر

ارتُكبت الليلة الماضية جريمة ذات طابع غامض في المنزل رقم ١٦ بشارع غودولفين، وهو أحد المنازل المنعزلة القديمة الطراز التي تقع بين النهر والدير، بالقرب من مباني البرلمان.

سكن السيد إدواردو لوكاس ذلك المنزل الصغير المميّز منذ عدة سنوات، وهو معروف في الوسط الاجتماعي، غير متزوج ويبلغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً. وتقيم في المسكن أيضاً السيدة برينغل، وهي مدبرة المنزل المسنّة، وخادمه الشخصي ميتون.

نامت الأولى مبكراً في غرفتها في الطابق العلوي، أما الخادم فقد خرج لقضاء الليلة في زيارة لصديق في هَمَرسميث، وهكذا فقد انفرد السيد لوكاس بالمنزل من الساعة العاشرة، ولم يتّضح بعدُ ما حدث خلال ذلك الوقت، ولكن في الساعة الثانية عشرة والربع كان الشرطي باريت يمر بشارع غودولفين فلاحظ أن باب المنزل رقم ١٦ مفتوح جزئياً، وطرق الباب فلم يجبه أحد، وحين رأى نوراً في الغرفة الأمامية تقدم

إلى الممر وطرق ثانية ولكن بلا إجابة، فدفع الباب ودخل ليجد الغرفة في حالة من الفوضى الشديدة، حيث دُفع الأثاث كله إلى جانب واحد، وكان في وسط الغرفة كرسي واحد مقلوب على ظهره، وبجانب ذلك الكرسي رقد ساكنُ المنزل المسكين وهو لا يزال ممسكاً بأحد أرجل الكرسي، وكان قد طُعن في قلبه، ولا بد أنه مات على الفور.

أما سلاح الجريمة فهو خنجر هندي انتُزع من لوحة تذكارية للأسلحة الشرقية كانت تزيّن أحد الجدران.

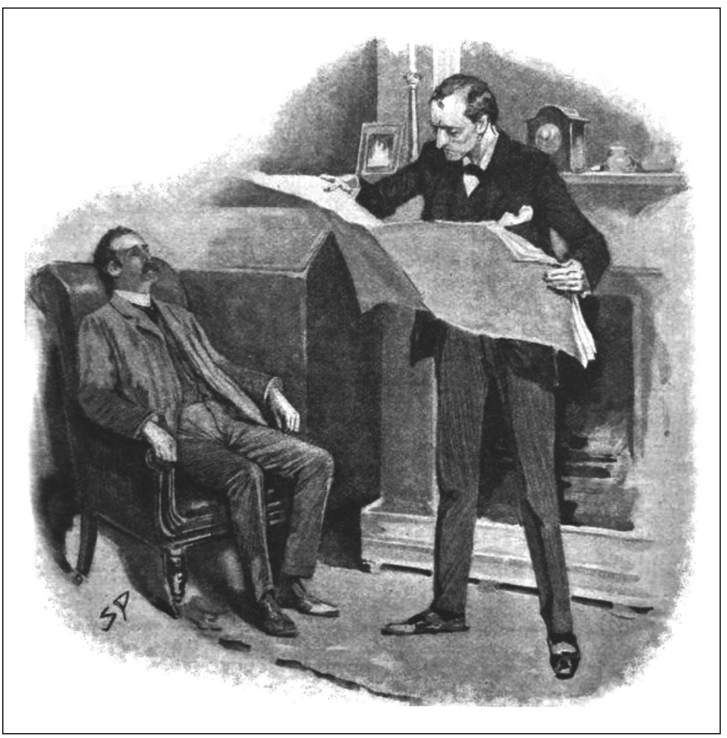

رسم سدني باجيت (١٩٠٤) Sidney Paget (1904)

ولا يبدو أن السرقة هي الدافع للجريمة، حيث لم تلاحَظ أي محاولة لنقل المحتويات القيّمة الموجودة في الغرفة. وبما أن السيد إدواردو كان معروفاً ومشهوراً فسوف يثير مصيرُه العنيف والغامض اهتماماً شديداً وتعاطفاً كبيراً ضمن دائرة واسعة من الأصدقاء.

سألني هولمز بعد صمت طويل قائلاً: حسناً يا واطسون، ماذا تفهم من هذا؟

- إنها مصادفة عجيبة.

- مصادفة؟! لدينا هنا واحد من ثلاثة نشتبه في تورطهم بحادثة الليلة الماضية، وها هو يلقى حتفه بطريقة عنيفة في نفس وقت السرقة. إن الاحتمالات كلها تنفي أن يكون الأمر مجرّد مصادفة. لا يا عزيزي واطسون، إن الحدثين مرتبطان تمام الارتباط، لا بد أن يكونا كذلك، وعلينا نحن العثور على الرابط.

- ولكن لا بد أن رجال الشرطة يعرفون كل شيء عن الأمر الآن.

- بالتأكيد لا، فهؤلاء يعرفون فقط ما يرونه في شارع غودولفين، وهم لا يعرفون (ولن يعرفوا) أي شيء عن حادثة وايتهول تريس. نحن وحدنا نعرف عن الواقعتين ونستطيع تتبع العلاقة بينهما. كما أن هناك نقطة واضحة كانت ستحوّل شكوكي تجاه لوكاس، فالمسافة بين شارع غودولفين ووايتهول تريس يمكن قطعها في دقائق قليلة سيراً على الأقدام، أما

العميلان الآخران اللذان شككت فيهما فيعيشان في أقصى الطرف الغربي، وبذلك كان لوكاس هو الأرجح لتكوين علاقة أو تلقّي رسالة من أحد سكان منزل السكرتير الأوروبي. إنه أمر بسيط، ومع ذلك فقد تثبت أهميته، لا سيما وأن الأحداث تركّزت في ساعات قليلة.

توقف قليلاً ثم هتف: يا إلهي، ما الذي لدينا هنا؟!

دخلت السيدة هدسون حاملةً بطاقة سيدة، فألقى هولمز نظرة على البطاقة ورفع حاجبيه بدهشة، ثم أعطاني البطاقة وقال للسيدة هدسون: اطلبي من السيدة هيلدا هوب أن تتكرم بالصعود.

بعد لحظة دخلت إلى شقتنا المتواضعة واحدة من أجمل سيدات لندن. كنت كثيراً ما أسمع عن جمال صغرى بنات الدوق بِلْمينستر، ولكن ذلك الوصف لم يكشف، لا هو ولا تأمّل صورها في الصحف، كل تلك الجاذبية الرقيقة الحساسة وجمال ألوان رأسها البديع.

على أن جمالها لم يكن أول ما يجذب النظر إليها، فقد كان خدّاها فاتنين ولكنهما شاحبان من شدة الانفعال، وكانت عيناها تلمعان ولكنها لمعة القلق، أما فمها الحساس فكان مشدوداً مزموماً في محاولة جاهدة لضبط النفس... وهكذا فقد كان الرعب وليس الجمال هو أول ما ظهر للعين حين وقفت زائرتنا الشقراء للحظة داخل إطار الباب المفتوح وسألت: هل كان زوجي هنا يا سيد هولمز؟

رسم سدني باجيت (١٩٠٤)　　Sidney Paget (1904)

- نعم يا سيدتي، لقد كان هنا.

- أرجو أن لا تخبره بزيارتي لك يا سيد هولمز.

انحنى هولمز ببرود وأشار إلى السيدة لتجلس، ثم قال: إنك تضعينني في موقف حساس يا سيدتي، ولذا فأرجو أن تجلسي وتخبريني بما تريدين، وأخشى أنني لا أستطيع قطع أي وعد غير مشروط لك.

مشت عبر الغرفة بتثاقل وجلست وهي تدير ظهرها إلى النافذة، ثم قالت وهي تكرر قبض وفَرْد كفّيها اللذين ضمّهما قفازان أبيضان: سأتحدث معك بصراحة يا سيد هولمز، أملاً في أن تدعوك صراحتي إلى مبادلتي بصراحة مثلها. إن بيني وبين زوجي ثقة كاملة في كل المواضيع عدا موضوع واحد، ألا وهو السياسة، فهو لا يخبرني بشيء، بل يصمت تماماً. والآن أنا مدركة بأن حادثة مؤسفة وقعت في منزلنا ليلة أمس، وأعرف أن ورقة قد اختفت، ولكن زوجي يرفض أن يثق فيّ لأن الأمر يتعلق بالسياسة. والآن أجد من الضروري... أقول من الضروري أن أفهم الأمر تماماً، وأنت الشخص الوحيد (بالإضافة إلى أولئك السياسيين) الذي يعرف الحقائق الصحيحة، ولذا أتوسل إليك يا سيد هولمز أن تخبرني بما حدث وبالنتائج المترتبة على ذلك. أخبرني بكل شيء يا سيد هولمز ولا تدَع مراعاتك لمصلحة موكّلك تمنعك من الكلام، وأنا أؤكد لك أن من مصلحته أن يضع فيّ ثقته التامة، فماذا كانت تلك الورقة التي سُرقت؟

- إن ما تطلبينه مني مستحيل حقاً يا سيدتي.

أَنَّتْ السيدة وغطت وجهها بيديها، فأكد قائلاً: لا بد أن تفهمي مدى استحالة الأمر، فلو أراد زوجك كتمان هذا الأمر عنك فهل من حقي أنا، وقد عرفت الحقائق تحت قَسَم السرّية المِهَنية، أن أفشي ما كتمَه؟ ليس من العدل أن تطلبي ذلك مني، بل يجب أن تطلبيه منه هو.

- لقد سألته، ثم جئت إليك كملاذ أخير. حسناً، هل يمكن أن توضح لي نقطة واحدة دون أن تخبرني بأي شيء محدّد؟

- وما هي يا سيدتي؟

- هل يُحتمَل أن تتأثر مسيرة زوجي السياسية بهذه الورقة؟

- بالتأكيد يا سيدتي، سوف يكون للأمر تأثير مؤسف جداً إذا لم يُعثر عليها.

شهقت بحدّة شهقة امرئ تحققت شكوكه وقالت: سؤال واحد آخر يا سيد هولمز: لقد فهمت من تعبير صدَر عن زوجي في وقت صدمته الأولى أن هناك عواقب فظيعة قد تنتج عن فقدان هذه الوثيقة، فهل هذا صحيح؟

- لو أنه قال ذلك فلا أستطيع إنكاره بالتأكيد.

- وما هي طبيعة هذه العواقب؟

- لا يا سيدتي، ها أنت تسألينني ثانية عمّا لا أستطيع

الإجابة عنه.

- إذن فلن آخذ من وقتك أكثر من ذلك. أنا لا أستطيع لومك يا سيد هولمز لرفضك التحدث معي بحرّية أكبر، ولكن أرجو أن لا تسيء الظن بي لرغبتي في مشاركة زوجي قلقه، حتى ولو كان ذلك ضد رغبته. مرة أخرى أتمنى أن لا تخبر زوجي بشيء عن هذه الزيارة.

عندما وصلت إلى الباب استدارت لتنظر إلينا، وحظيتُ بلمحة أخيرة لذلك الوجه القلِق الجميل والعينين الخائفتين.

تضاءل صوت حفيف تنّورتها حتى انتهى بإغلاق الباب، وعندئذ قال هولمز وهو يبتسم: والآن يا واطسون، إن الجنس اللطيف من اختصاصك، فماذا كانت لعبة السيدة؟ ما الذي أرادته حقاً؟

- إن كلامها واضح بالفعل وقلقها طبيعي جداً.

- حسناً، فكّر في مظهرها يا واطسون وفي تصرفاتها وانفعالها المكبوت، بالإضافة إلى قلقها وإصرارها على الأسئلة، ويجب أن تتذكر أنها تنتمي إلى طبقة لا تُظهر المشاعر بسهولة.

- لا بد أنها كانت متأثرة جداً.

- ولتتذكر أيضاً تأكيدها المثير للفضول أن من مصلحة زوجها أن تعرف كل شيء، فما الذي كانت تعنيه بذلك؟ ولا بد أنك لاحظت -يا واطسون- كيف ناورت لكي يكون الضوء

آتياً من خلفها حتى لا نستطيع قراءة تعبيرات وجهها؟

- نعم، لقد اختارت الكرسي الوحيد الذي يسمح بذلك في الغرفة.

- ولكن دوافع النساء غامضة جداً على أية حال. ألا تذكر تلك المرأة في مارغيت التي شككت فيها لأنها تصرفت بمثل هذه الطريقة؟ لقد صنعت ذلك لأنها لم تكن تضع مسحوقاً على وجهها! فكيف يمكن أن تبني أفكاراً فوق مثل هذا الرمل المتحرك؟ إن أتفه تصرفات النساء قد تحتاج إلى مجلدات لشرحها، كما يمكن لأغرب التصرفات التي يتصرّفنَها أن تنشأ بسبب دبوس أو ملقط شعر! أتمنى لك صباحاً سعيداً يا واطسون.

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن تكون قد استمتعت بقراءة جزء من هذه المجموعة القصصية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذا الكتاب (وسواه من الإصدارات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال
www.al-ajyal.com